

تفسير البحر المحيط

@ 476 @ أيضاً من الفائدة تذكّارهم بتعداد نعم الله عليهم ونقمه منهم ، ليزدجر الأخلاف بما حل بالأسلاف . .

{ وَاسْمَعُوا ° } أي : اقبلوا ما سمعتم ، كقوله : { سَمِعَ اللّٰهُ * لِمَنْ ° } ، أو { الْكِتَابِ أَنْ ° إِذَا سَمِعْتُمْ ° } ، أو { اللّٰهُ - وَأَطِيعُوا ° } . لأن فائدة السماع الطاعة ، قاله المفضل . والمعنى في هذه الأقوال الثلاثة قريب . قال الماتريدي : معنى اسمعوا : افهموا . وقيل : اعملوا ، ووجهه أن السمع يسمع به ، ثم يتخيل ، ثم يعقل ، ثم يعمل به إن كان مما يقتضي عملاً . ولما كان السماع مبتدأ ، والعمل غاية ، وما بينهما وسائط ، صح أن يراد بعض الوسائط ، وصح أن يراد به الغاية . { قَالُوا ° } : هذا من الالتفات ، إذ لو جاء على الخطاب لقال : قلتم { سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ } : ظاهره أن كلتا الجملتين مقولة ، ونطقوا بذلك مبالغة في التعنت والعصيان . ويؤيده قول ابن عباس : كانوا إذا نظروا إلى الجبل قالوا : { سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ } ، وإذا نظروا إلى الكتاب قالوا : { سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ } . وقيل : القول هنا مجاز ، ولم ينطقوا بشيء من الجملتين ، ولكن لما لم يقبلوا شيئاً مما أمروا به ، جعلوا كالناطقين بذلك . وقيل : يعبر بالقول للشيء عما يفهم به من حاله ، وإن لم يكن نطق . وقيل : المعنى سمعنا بآذاننا وعصينا بقلوبنا ، وهذا راجع لما قاله الزمخشري ، قال : قالوا سمعنا قولك وعصينا أمرك . فإن قلت : فكيف طابق قوله جوابهم ؟ قلت : طابقه من حيث أنه قال لهم اسمعوا ، وليكن سماعكم سماع تقبل وطاعة ، فقالوا سمعنا ولكن لا سماع طاعة ، انتهى كلامه . والقول الأوّل أحسن ، لأننا لا نصير إلى التأويل مع إمكان حمل الشيء على ظاهره ، لا سيما إذا لم يقم دليل على خلافه . { وَاشْرَبُوا ° } : عطف على قالوا سمعنا وعصينا . فيكون معطوفاً على قالوا ، أي خذوا ما آتيناكم بقوة ، قلتم كذا وكذا وأشربتم ، أو عطف مستأنف لا داخل في باب الالتفات ، بل إخبار من الله عنهم بما صدر منهم من عبادة العجل ، أو الواو للحال ، أي وقد أشربوا والعامل قالوا ، ولا يحتاج الكوفيون إلى تقدير قد في الماضي الواقع حالاً ، والقول الأول هو الظاهر . { فِي قُلُوبِهِمْ ° } : ذكر مكان الإشراب ، كقوله : { إِنَّ زَمَناً يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ° } . { الْعَجَل ° } : هو على حذف مضافين ، أي حب عبادة العجل من قولك : أشربت زيدا ماء ، والإشراب مخالطة المائع الجامد ، وتوسع فيه حتى صار في اللونين ، قالوا : وأشربت البياض حمرة ، أي خلطتها بالحمرة ، ومعناه أنه داخلهم حب عبادته ، كما داخل الصبغ الثوب ، وأنشدوا : % (إذا ما القلب

أشرب حب شيء % .

فلا تأمل له عند انصرافاً .

%)

وقال ابن عرفة : يقال أشرب قلبه حب كذا ، أي حل محل الشراب ومازجه . انتهى كلامه .
وإنما عبر عن حب العجل بالشرب دون الأكل ، لأن شرب الماء يتغلغل في الأعضاء حتى يصل إلى
باطنها ، ولهذا قال بعضهم : % (جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي % .

فأصبح لي عن كل شغل بها شغل .

%)

وأما الطعام فقالوا : وهو مجاور لها ، غير متغلغل فيها ، ولا يصل إلى القلب منه إلا
يسير ، وقال : % (تغلغل حب عثمة في فؤادي % .

فباديه مع الخافي يسير .

%)

وحسن حذف ذينك المضافين ، وأسند الإشراب إلى ذات العجل مبالغة كأنه بصورته أشربوه ،
وإن كان المعنى على ما ذكرناه من الحذف . وقيل : معنى اشربوا : أي شدّ في قلوبهم حب
العجل لشغفهم به ، من أشربت البعير :